وجعل سبحانه المخاف من سوء العذاب ؛ وأنت تقول : خِفْتُ زيداً ، وتقول : خِفْتُ المرض ، ففيه شىء تخافه ؛ وشىء يُوقِع عليك ما تخافه .

وأولو الألباب يخافون سُوء حساب الحق سبحانه لهم ؛ فيدفعهم هذا الخوف على أنْ يَصلوا ما أمر به سبحانه أنْ يُوصَل ، وأنْ يبتعدوا عن أى شىء يُغضبه .

ونحن نعلم أن سوء الحساب يكون بالمناقشة واستيفاء العبد لكل حقوقه ؛ فسبحانه مُنزَّه عن ظلم أحد ، ولكن مَنْ يُناقش الحسابَ فهو مَنْ يَلْقى العذاب[1] ؛ ونعوذ بالله من ذلك ، فلا أحد بقادر على أن يتحمل عذابَ الحق له .

ويواصل الحق سبحانه وَصْفَ أُولى الألباب فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾

ونجد هذه الآية معطوفة على ما سبقها من صفات أولى الألباب الذين يتذكَّرون ويعرفون مَواطن الحق بعقولهم اهتداءً بالدليل ؛ الذين يُوفون بالعهد الإيمانى بمجرد إيمانهم بالله فى كُلِّيات العقيدة

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حُوسب يوم القيامة عُذِّب . فقال عبدالله بن أبى مليكة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] فقال : ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، مَنْ نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٦) قال النووى فى شرحه : « معناه أن التقصير غالب فى العباد فمن استقصى عليه ولم يُسامح هلك ودخل النار ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء » .

الوحدانية ، ومُقْتضيات التشريع الذى تأتى به تلك العقيدة .

ولذلك جعلها سبحانه صفقة أوضحها فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. (١١١) ﴾ [التوبة]

وهى صفقة إيجاب وقَبُول ، والعهد إيجاب وقبول ؛ وهو ميثاق مُؤكَّد بالأدلة الفطْرية أولاً ، والأدلة العقلية ثانياً .

وهُمْ فى هذه الآية مَنْ صبروا ابتغاءَ وجه ربهم ، والصبر هو تحمُّل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يُخرِج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام فى النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مَصْبوراً عليه ؛ والمَصْبور عليه فى الأحداث قد يكون فى ذات النفس ؛ كأنْ يصبر الإنسان على مشقَّة التكليف الذى يقول « افعل » و « لا تفعل » .

فالتكليف يأمرك بترْك ما تحب ، وأنْ تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعَاد عما ينهاك عنه ، وكُلُّ هذا يقتضى مُجَاهدة من النفس ، والصبر الذاتى على مشَاقِّ التكليف .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً :

﴿ وَإِنَّهَا[1] لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٨٧/١) : « الضمير فى قوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ .. (٤٥) ﴾ [البقرة] عائد إلى الصلاة نصَّ عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك » .

وهذا صَبْـر الذَّات على الذَّات . ولكن هناك صَبْر آخر ؛ صـبر منك على شيء يقع من غيرك ؛ ويُخرجك هذا الشيء عن استقامة نفسك وسعادتها .

وهو ينقسم إلى قـسمين : قسم تجـد فيه غريمـاً لك ؛ وقسم لا تجد فيه غريماً لك .

فالمـرض الذى يُخرج الإنسـان عن حَيِّز الاسـتقامـة الصِّحـية ويُسـبِّب لك الألم ؛ ليس لك فيـه غريم ؛ لكنك تجـد الغريم حـين يعتدى عليك إنسانٌ بالضرب مـثلاً ؛ ويكون هذا الذى يعتدى عليك هو الغريم لك .

وكل صبـر له طاقة إيمانيـة تحتمله ؛ فـالذى يَقْدر على شىء ليس له فـيه غـريم ؛ يكون صَـبْره مـعقـولاً بعض الشيء ؛ لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره .

أما صـبر الإنسـان على ألم أوقعه به مَنْ يـراه أمامه ؛ فـهذا يحتـاج إلى قوة ضَـبْط كبيـرة ؛ كى لا يهيج الإنسـان ويُفكِّر فى الانتقام .

ولذلك تجـد الـحق يفـصل بين الأمـرين ؛ يفـصل بين شىء أصـابك ولا تجد لك غـريماً فـيـه ، وشىء أصابك ولك من مـثلك غريمٌ فيه .

ويقول سبحانه عن الصبر الذى ليس لك غريم فيه :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

ويقـول عن الصبـر الذى لك فيـه غـريم ، ويحتـاج إلى كَظْم الغيظ ، وضبط الغضب :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

وحينما يريد الحق سبحانه منك أن تصبر ؛ فهو لا يطلب ذلك منك وحدك ؛ ولكن يطلب من المقابلين لك جميعاً أنْ يصبروا على إيذائك لهم ؛ فكأنه طلب منك أنْ تصبر على الإيذاء الواقع من الغير عليك ؛ وأنت فَرْد واحد .

وطلب من الغير أيضاً أنْ يصبر على إيذائك ، وهذا هو قمة التأمين الاجتماعى لحياة النفس الإنسانية ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تصبر على مَنْ آذاك ؛ فقد طلب من الناس جميعاً أن يصبروا على آذاك لهم .

فإذا بدرتْ منك بادرة من الأغيار ؛ وتخطىء فى حق إنسان آخر وتؤلمه ؛ فإن لك رصيداً من صبر الآخرين عليك ؛ لأن الحق سبحانه طلب من المقابل لك أنْ يصبر عليك وأن يعفو .

وإذا كان لك غريم ؛ فالصبر يحتاج منك إلى ثلاث مراحل : أنْ تصبر صبراً أولياً بأن تكظم فى نفسك ؛ ولكن الغيظ يبقى ، وإن منعت الحركة النُّزوعية من التعبير عن هذا الغيظ ؛ فلم تضرب ولم تَسُبّ ؛ ويسمى ذلك :

﴿ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

والكَظْم مأخوذ من عملية رَبْط القِرْبة التى نحمل فيها الماء ؛ فإنْ لم نُحْكِم ربطها انسكب منها الماء ؛ ويُقال « كظم القربة » أى : أحكم ربطها .

ثم يأتى الحق سبحانه بالمرحلة الثانية بعد كظم الغيظ فيقول :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

وهنا تظهر المسألة الأرْقى ، وهى إخراج الغيظ من الصدر ؛ ثم التسامى فى مرتبة الصِّديقين ؛ فلا ينظر إلى مَنْ كظم غيظه عنه أولاً ؛ بل يعفو عنه ، ولا ينظر له بعداء ، بل بنظرة إيمانية .

والنظرة الإيمانية هى أن مَنْ آذاك إنما يعتدى على حَقِّ الله فيك ؛ وبذلك جعل الله فى صَفِّك وجانبك ؛ وهكذا تجد أن مَنْ ظلمك وأساء إليك قد جعلك فى معية الله وحمايته ؛ وعليك أن تُحسن له.

والصبر له دوافع ؛ فهناك مَنْ يصبر كى يُقال عنه : إنه يملك الجلَد والصبر ؛ وليبين أنه فوق الأحداث ؛ وهذا صبر ليس ابتغاء لوجه الله ؛ بل صبر كيلا يَشْمت فيه أعداؤه .

وصبر لأنه قد توصل بعقله أن جزعه لن ينفعه ، ولو كان حصيفاً[1] لَصبر لوجه الله ، لأن الصبر لوجه الله يخفف من قَدَر الله .

ومَنْ يصبر لوجه الله إنما يعلم أن لله حكمة أعلى من الموضوع الذى صبر عليه ؛ ولو خُيِّر بين ما كان يجب أن يقع وبين ما وقع ؛ لاختار الذى وقع .

والذى يصبر لوجه الله إنما ينظر الحكمة فى مَوْرد القضاء الذى وقع عليه ، ويقول : أحمدُكَ ربى على كل قضائك وجميل قَدَرك ؛ حَمْدَ الرضى بحكمك لليقين بحكمتك .

فمَنْ يصبر على الفاقة[2] ؛ ويقول لنفسه : « اصبرى إلى أن

---

(١) الحصيف : جيد الرأى مُحْكم العقل . وإحصاف الأمر : إحكامه . [لسان العرب ـ مادة : حصف] .

(٢) الفاقة : الفقر والحاجة . وافتاق الرجل أى افتقر . [لسان العرب ـ مادة : فوق] .

يفرجها الله » ولا يسأل أحداً ؛ سيجد الفرج قد أتى له من الله .

انظر إلى الشاعر وهو يقول :

إذَا رُمْتَ أنْ تستخرِجَ المالَ مُنْفقاً
عَلى شَهَواتِ النفْسِ فى زَمَنِ العُسْرِ
فَسَلْ نفسكَ الإنفاقَ مِنْ كَنزِ صَبْرِها
عليْكَ وإنذاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ
فَإنْ فعلْتَ كنتَ الغنىَّ وإنْ أبيْتَ
فَكلُّ مُنوَّع بعدَها واسِعُ العُذْرِ

أى : إنْ راودتْك نفسك لتقترض مالاً لتنفقه على شهوات النفس ، ورفضتَ تلك المُرَاودة ، وطلبت من نفسك أنْ تعطيك من كَنْز الصبر الذى تملكه ؛ وإنْ فعلتَ ذلك كنت الغنىَّ ، لأنك قدرتَ على نفسك .

والذى يلتفت إلى الحَدَث وحده يتعب ؛ والذى يلتفت إلى الحدث مقروناً بواقعه من ربه ؛ ويقول : « لا بد أن هناك حكمة من الله وراء ذلك » فهو الذي يصبر ابتغاء وجه الله . ويريد الله أنْ يخُصَّ مَنْ يصبر ابتغاء وجهه بمنزلة عالية ؛ لأنه يعلم أن الله له حكمة فيما يُجريه من أقدار .

ويتابع سبحانه وَصْف أولى الألباب :

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلانِيَةً .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

وسبق أن قلنا فى الصلاة أقوالاً كثيرة ؛ وأن مَنْ يؤديها على

مطلوبها ؛ فهو مَنْ يعلم أنها جَلْوة[1] بين العبد وربه ، ويكون العبد في ضيافة ربه .

وحين تُعْرَض الصَّنْعة على صانعها خمس مرات في اليوم ؛ فلا بد أنْ تنال الصَّنْعة رعاية وعناية مَنْ صمَّمها وخلقها ، وكما أن الله غَيْبٌ عنك ؛ فكذلك أسباب شفائك من الكروب يكون غيباً عنك .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ ذلك « فكان إذا حزبه[2] أمر قام إلى الصلاة »[3] .

ومن عظمة الإيمان أن الله هو الذي يدعوك إلى الصلاة ؛ وهو سبحانه لا يمنع عنك القُرْب في أيِّ وقت تشاء ؛ وأنت الذي تُحدِّد متى تقف بين يديه في أي وقت بعد أن تُلبِّي دعوته بالفروض ؛ لتؤدي ما تحب من النوافل ؛ ولا يُنهي سبحانه المقابلة معك كما يفعل عظماء الدنيا ؛ بل تُنهي أنت اللقاء وقتَ أنْ تريد .

ولقد تأدَّب رسول الله ﷺ بأدب ربه ؛ وتخلَّق بالخُلق السامي ؛ فكان إذا وضع أحد يده في يد الرسول ﷺ ؛ فهو لا ينزع يده من يد مَنْ يُسلِّم عليه ؛ إلا أنْ يكون هو النازع[4] .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

---

(١) اجتلى الشيء : نظر إليه . وجلَّى الشيء : كشفه . فالجلوة : الانكشاف والظهور وكأنه ينظر إليه . [لسان العرب - مادة : جلا] .

(٢) حزبه أمر : أصابه . أي نزل به مهمّ أو أصابه غَم واشتد عليه . وأمر حازب وحزيب : شديد . [لسان العرب - مادة : حزب] .

(٣) عن حذيفة رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٨٨) ، وأبو داود في سننه (١٣١٩) .

(٤) عن أنس بن مالك قال : « إن كانت الأمَة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة ، في حاجتها » . أخرجه ابن ماجة في سننه (١٣٩٨) ، وأحمد في مسنده (٣/١٧٤ ، ٢١٦) .

يعنى : أنك لا يجب أن تنظر إلى ما يؤخذ منك ، ولكن انظر إلى أنك إنْ وصلتَ إلى أن تحتاج من الغير سيؤخذ لك ، وهذا هو التأمين الفعال ، ومَنْ يخاف أن يترك عيالاً دون قدرة ، ولو كان هذا الإنسان يحيا فى مجتمع إيمانى ، لوجد قول الحق مُطبَّقاً :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا[١] (٩) ﴾ [النساء]

وبذلك لا يشعر اليتيم باليُتْم ؛ ولا يخاف أحد على عياله ، ولا يسخط أحد على قَدَر الله فيه . وسبحانه يضع الميزان الاقتصادى حين يطلب منا الإنفاق ، والإنفاق يكون من مال زائد ؛ أو مال بلغ النصاب[٢] ، ولذلك فعليك أنْ تتحرك حركة نافعة للحياة ، ويستفيد منها الغير ، كى يكون لك مال تُنفق منه ، وعلى حركتك أن تَسعَكَ وتسَعَ غيرك .

وهناك مَنْ ينفق ممَّا رزقه الله بأن يأخذ لنفسه ما يكفيها ، وينفق الباقى لوجه الله ؛ لأنه يضمن أن له إلهاً قادراً على أن يرزقه ، والمضمون عند الله أكثر ممَّا فى يده .

وها هو رسول الله ﷺ يسأل أبا بكر فيما ناله من غنائم ويقول له : ماذا صنعتَ بها يا أبا بكر ؟ فيقول أبو بكر الصديق رضى الله

---

(١) السداد : الصواب وموافقة الحق والعدل . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) ﴾ [الأحزاب] أى : موافقاً للعدل والحق والشرع لا خطأ فيه . [القاموس القويم : ١/٣٠٧] .

(٢) النصاب من المال : القَدْر الذى تجب فيه الزكاة إذا بلَغه . [لسان العرب ـ مادة : نصب] . ويُقدَّر هذا النصاب بما يساوى قيمة ٨٥ جراماً من الذهب بسعر اليوم الذى تُخرج فيه الزكاة ، إذا مَرَّ عليه عام.

عنه وأرضاه : تصدَّقْتُ بها كلها . فيقول الرسول : وماذا أبقيت ؟ يقول أبو بكر : أبقيت الله ورسوله(١) .

وسأل رسول الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وماذا فعلتَ يا عمر ؟ فيقول ابن الخطاب : تصدقْتُ بنصفها ولله عندى نصفها . وكأنه يقول للرسول : « إن كان هناك مصرف تريدنى أن أصرف فيه النصف الباقى لله عندى ؛ فلسوف أفعل » .

وهكذا رأينا مَنْ يصرف مما رزقه الله ؛ بكل ما رزقه سبحانه ، وهو أبو بكر الصديق ؛ ونجد مَنْ ينفق مما رزقه الله ومستعد لأن ينفق الباقى إنْ رأى رسولُ الله مصرفاً يتطلب الإنفاق .

ونجد من توجيهات الإسلام أن مَنْ يرعى يتيماً ؛ فليستعفف فلا يأخذ شيئاً من مال اليتيم إنْ كان الولىُّ على اليتيم له مال ؛ وإن كان الولى فقيراً فليأكل بالمعروف(٢) .

ولقائل أنْ يسأل : ولماذا نأتى بالفقير لتكون له ولاية على مال اليتيم؟

وأقول : كى لا يحرم المجتمع من خبرة قادرة على الرعاية ؛ فيأتى بالفقير صاحب الخبرة ؛ وليأكل بالمعروف .

---

(١) ذكر القصة الكاندهلوى فى حياة الصحابة (٢/١٣٧) وعزاها لأبى داود والترمذى والدارمى والحاكم أن عمر رضى الله عنه قال : « أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندى فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إنْ سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالى فقال ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده . فقال : يا أبا بكر ، ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبقه إلى شىء أبداً » .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦) ﴾ [النساء] .

ونلحظ أن الحق سبحانه قال :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ⑤ ﴾ [النساء]

ولم يَقُلْ « وارزقوهم منها » أي : خُذوا الرزق من المَطْمور فيما يملكون بالحركة في هذا المال .

وهكذا نفهم كيف يُنفق الإنسان المؤمن ممَّا رزقه الله ؛ فهناك مَنْ ينفق كل ما عنده ؛ لأنه واثق من رصيده عند ربه ، وهناك مَنْ ينفق البعض مما رزقه الله ؛ وقد تأخذه الأريحية والكرم فيعطي كل مَنْ يسأله ، وقد ينفق كل ما عنده ؛ مثل مَنْ يجلس في جُرْن القمح ويريد أن يُزكّي يوم الحصاد ؛ فيعطي كل مَنْ يسأله ؛ إلى أن يفرغ ما عنده .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ١٤١ ﴾

[الأنعام]

وهنا نجد الحق سبحانه يصف هؤلاء المُنْفقين في سبيله :

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً .. ٢٢ ﴾ [الرعد]

والسر هو الصَّدقة المندوبة ، أما الإنفاق في العلانية ؛ فهي الصَّدقة الواضحة ؛ لأن الناس قد تراك غنياً أو يُشَاع عنك ذلك ، ولا يرونك وأنت تُخرج الزكاة ، فتنالك ألسنتهم بالسوء ؛ وحين يَرَوْنَكَ وأنت تنفق وتتصدَّق ؛ فهم يعرفون أنك تؤدي حقَّ الله ، وتشجعهم أنت بأن يُنفقوا مما رزقهم الله .

وصدقة السِّر وصدقة العَلَن أمرها متروك لتقدير الإنسان ؛ فهناك مَنْ يعطى الصدقة للدولة لتتصرف فيها هى ؛ ويعطى من بعد ذلك للفقراء سراً ؛ وهذا إنفاق فى العَلَن وفى السر ؛ وجاء الحق بالسر والعلانية ؛ لأنه لا يريد أنْ يحجب الخير عن أىِّ أحد بأى سبب .

وقد يقول قائل : إن فلاناً يُخرِج الصدقة رياءً .

وأقول لِمَنْ يتفوَّه بمثل هذا القول : ألَمْ يَسْتفِد الفقير من الصدقة ؟ إنه يستفيد ، ولا أحدَ يدخل فى النوايا .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

والدَّرْء : هو الدَّفْع بشدة ؛ أى : يدفعون بالحسنة السيئة بشدة . وأول حسنة إيمانية هى أنْ تؤمن بالله ؛ وبذلك تدفع سيئة الشرك ، أو دفعتَ السيئة . أى : دفعتَ الذنب الذى ارتكبته وذلك بالتوبة عنه ؛ لأن التوبة حسنة ، وحين ترى مُنْكراً ، وهو سيئة ، فأنت تدفعه بحسنة النُّصْح .

أو : أن يكون معنى :

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

هو إنْ فعلتَ سيئة فأنت تتبعها بحسنة ، والكمال المطلق لله وحده ولرسوله ؛ لنفترض أن واحداً لديه سيئة مُلِحّة فى ناحية من النواحى ؛ فالحقُّ سبحانه يأمره أن يدفع السيئة بأن يفعل بجانبها حسنة .

يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود]

وها هو رسول الله ﷺ يقول لمعاذ[1] رضى الله عنه :

« اتق الله أينما تكون ، وأتبع السيئة حسنة تَمْحُها ، وخالق الناس بخلق حسن »[2] .

ولذلك ، فأنت تجد أغلب أعمال الخير فى المجتمع لا تصدر من أىِّ رجل رقيق لا يرتكب السيئات ؛ فلا سيئةَ تطارده كى يفعل الحسنة التى يرجو أنْ تمحو السيئة .

فالسيئة ساعةَ تُلهب ضمير مَن ارتكبها ؛ ولا يستطيع أن يدفعها ؛ لأنه ارتكبها ؛ فهو يقول لنفسه « فَلأبنِ مدرسة » أو « أبنى مسجداً » أو « أقيم مستشفى » أو « أتصدق على الفقراء » .

وهكذا نجد أن أغلب حركات الإحسان قد تكون من أصحاب السيئات ، فلا أحدَ بقادر على أنْ يأخذ شيئاً من وراء الله ؛ فمَنْ يرتكب سيئة لابُدَّ أنْ تُلحَّ عليه بأحاسيس الذَّنْب ؛ لتجده مدفوعاً من بعد ذلك إلى فعل الحسنات ؛ لعلَّ الحسنات تُعوِّض السيئات .

ومن دَرْء الحسنة بالسيئة أيضاً ؛ أنه إذا أساء إليك إنسان فأنت

---

(١) هو : معاذ بن جبل الأنصارى الإمام المقدم فى علم الحلال والحرام ، كان من أجمل الرجال وشهد المشاهد كلها ، أرسله رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن معلماً ومُفقِّهاً ، توفى فى طاعون الشام عام ١٧ هـ وكان عمره ٣٤ عاماً . [الإصابة ١٠٦/٦] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٨/٥ ، ٢٣٦) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٣٧٦/٤) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

تَكْظِم غيظك وتعفو ؛ وبذلك فأنت تحسن إليه .

وتجد الحق سبحانه يقول :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وإذا أنت جرَّبْتَها فى حياتك ؛ وأخلصْتَ المودة لمن دخل فى العداوة معك ؛ ستجد أنه يستجيب لتلك المودة ويصبح صديقاً حميماً لك .

ولكن هناك مَنْ يقول : جرَّبْتُ ذلك ولم تنفع تلك المسألة .

وأقول لمن يقول ذلك : لقد ظننتَ أنك قد دفعتَ بالتى هى أحسن ، لكنك فى واقع الحال كنت تتربص بما يحدث منك تجاه مَنْ دخلتَ معه فى عداوة ، ولم تُخلص فى الدفع بالتى هى أحسن ، وأخذت تُجرِّب اختبار قول الله ؛ فذهبتْ منك طاقة الإخلاص فيما تفعل ؛ وظل الآخر العدو على عداوته .

لكنك لو دفعتَ بالتى هى أحسن ستجد أن الآية القرآنية فيها كل الصِّدْق ؛ لأن الله لا يقول قضية قرآنية ثم تأتى ظاهرة كونية تُكذِّب القرآن .

ولذلك يقول الشاعر :

يَا مَنْ تُضايِقه الفِعَالُ مِنَ التى ومِنَ الذى
دفع فِدْيتك بالتى حتَّى نَرى فإذَا الذى

أى : يا مَنْ تضايقه أفعال الذى بينك وبينه عداوة ؛ عليك أن

تُحسن الدَّفْع بالتى هى أحسن ، حتى ترى أن العداوة التى كانت بينك وبين ما ذكره الحق سبحانه فى قوله :

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت]

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرعد]

أى : أن المتقدمين أولى الألباب الذين اجتمعت لهم تلك الصفات التسعة ؛ بدايةً من أنهم يُوفُون بعهد الله ؛ ولا ينقضون الميثاق ؛ ويَصلون ما أمر الله أنْ يُوصَل ويخشوْن ربهم ؛ ويخافون سُوء الحساب ؛ وصبروا ابتغاء وجه ربهم ؛ وأقاموا الصلاة ؛ وأنفقوا مما رزقهم الله سراً وعلانية ؛ ويَدْرءون بالحسنة السيئةَ ، هؤلاء هم الذين لهم عُقْبى الدار .

وعُقْبى مأخوذة من العقب ؛ فالقدم له مقدم وله عَقِب ، وعقب هو ما يعقب الشىء ، ونقول فى أفراحنا « والعاقبة عندكم فى المسرات » أى : أننا نتمنى أن تتحقق لكم مَسرَّة مثل التى عندنا ، وتكون عقب المَسرَّة التى فرحنا نحن بها .

وهكذا تكون العُقْبى هى الشىء الذى يَعْقُب غيره ، والذى يعقب الدار الدنيا هى الدار الآخرة .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى الآية التالية مُوضِّحاً العاقبة لهؤلاء :

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

إذن : فالدار الآخـرة التى تعقب الدنيا بالنسبـة لأولى الألباب هى جنات عَدْن . و « العَدْن » هو الإقامة الدائمة ؛ وجنات عدن هى جنات الإقامة الدائمة ، لأن الدنيا ليست دار إقامة .

وكل نعـيم فى الدنيـا إمـا أن تفـوته بالمـوت أو يفوتك بأغـيـار الحياة . أما جنات عَدْن فهى دار إقـامة دائمة ؛ بما أن « عدن » تعنى مرافقة دائمة للجنات .

والجنات معناها كـما نفهم هى البساتين التى فـيها أشجار وفـيها ثمار ؛ وكل مـا تشتـهى الأنفس ، مع ملاحظة أن هذه الجنَّـات ليست هى المساكن ؛ بل فى تلك الجنات مسكن بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ .. (٧٢) ﴾ [التوبة]

فالجنات هى الحـدائق ؛ وفيها مـساكن ، ونحن فى حيـاتنا الدنيا نجد الـفيلات فى وسط الحـدائق ، فمـا بالنا بما يَعِـد به الله من طيب المساكن وسط الجنات ؟

لا بد أن ينطـبق عليـه وصف الرسـول ﷺ لـلجنة فى الحـديث القدسى عن رب العزة سبحانه :

« أعددت لعـبادى الصالحـين ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سـمعتْ ، ولا خَطر على قلب بشر »(١) .

وهكذا بيَّن الله سبحانه عقبى الدار ؛ فهى :

﴿ جَنَّاتُ عَـــدْنٍ يَدْخُلُونَهَـــا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِـــهِمْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وَذُرِّيَّاتِهِمْ .. (٢٣) ﴾ [الرعد]

وآباء جمع « أب » أى : يدخلها مع أولى الألباب مَنْ كان صالحاً من الآباء مُتبعاً لمنهج الله .

وإنْ سأل سائل : وأين الأمهات ؟

أقول : نحن ساعة نثنى المتماثلين نُغلِّب الذُّكر دائماً ، ولذلك فآباؤهم تعنى الأب والأم ، أَلَمْ يقُلِ الحق سبحانه فى سورة يوسف :

﴿ ورفع أبويه على العرش .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وهؤلاء هم الذين يدخلون الجنة من أُولى الألْباب الذين استوفَوْا الشروط التسعة التى تحدَّثنا عنها ؛ فهل استوفى الآباء والأزواج والأبناء الشروط التسعة ؟

ونقول : إن الحقَّ سبحانه وتعالى يعامل خَلْقه فى الدنيا بمقتضى العواطف الموجودة فى الذُّرية ؛ فالواحد منَّا يُحب أولاده وأزواجه وآباءه ؛ وما دام يحبهم وقد صلحوا كُلٌّ حَسْبَ طاقته ؛ فالحق سبحانه يُلحقهم به .

ولذلك تأتى آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم[1] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ[2] (٢١) ﴾ [الطور]

---

(١) لاته يليته حقَّه لَيْتاً : نقصه ولم يُؤدِّه كاملاً . قال تعالى : ﴿ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

(٢) أى : مرهون عند الله حتى يُحاسَب على ما كسبه . [القاموس القويم ١/٢٧٨] .

وهنا يمسك القرآن القضية العقلية في الإلحاق بمعنى أنْ تُلحق ناقصاً بكامل ، فلو كان مُساوياً له في العمل ما سُمِّي إلحاقاً ، فكل إنسان يأخذ حَقَّه ؛ وقد اشترط الحق سبحانه شرطاً واحداً في إلحاق الذرية بالآباء ، أو إلحاق الآباء بالذرية في الجنة ، وهو الإيمان فقط .

وأوضح لنا هنا أن الآباء قد تميَّزوا بعمل إيماني بدليل قوله تعالى:

﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ..(٢١) ﴾ [الطور]

فلم يأخذ سبحانه عمل الأب الذي عمل ؛ والابن الذي لم يعمل ، ومزج الاثنين ، ليأخذ المتوسط ، لا ، وذلك كي لا يظلم مَنْ عمل من الآباء أو الأبناء .

ثم إن ذلك لو حدث ؛ لما اعتُبر تواجدُ الآباء مع الأبناء في الجنة إلحاقاً ؛ لأن الإلحاق يقتضي أن يبقى حَقُّ كل مَنْ عمل ؛ ثم يتكرم سبحانه من بعد ذلك بعملية الإلحاق ؛ بشرط واحد هو أن يكون الشخص المُلْحق مؤمناً .

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ..(٢١) ﴾ [الطور]

أي : أن الذرية مؤمنة ؛ والأزواج مؤمنون ؛ والأهل مؤمنون ؛ والأبوين مؤمنان ، ولكن الذي يلحق به هو مَنْ يُكرمه الله بهذا الإلحاق ؛ كي يُدخل الفرح على قَلْب المؤمن حين يرى أولاده معه في الجنة ما داموا مؤمنين ؛ وهذه قمة في العدالة ، لماذا ؟

والمَثل الذي أضربه على ذلك : هَبْ أن أباً قد حرص على أنْ يطعَم أهلَه من حلال ؛ فقد يعيش أولاده في ضيق وشَظَف ؛ بينما

نجد أبناء المنحرف يعيشون فى بُحْبُوحَة[1] من العيش ؛ وهكذا يتنعَّم أبناء المنحرف الذى يأكل ويطعم أولاده من حرام ؛ بينما يعانى أبناء الأمين الذى قد يعتبره البعض مُتزمتاً ؛ لأنه يَرْعى حق الله ، ويرفض أكل الحرام .

وما دام أولاده الذين يأكلون من حلال قد يُعانون معه من عدم التنعُّم ؛ فالحق سبحانه يلحقهم فى الجنة بنعيم يعيشه الأب ؛ لا يفوتهم فيه شىء ؛ ولا يفوته شىء .

وبذلك تسعد الذرية ؛ لأنها جاءت من صُلْب رجل مؤمن قضى حياته على جَادة الصواب ؛ رغم أن بعض الناس قد اتهمتْه فى الدنيا بأنه مُتزمِّت[2] .

ولقائل أنْ يقول : ألاَ يوجد تناقض بين هذا الإلحاق وبين قول الحق سبحانه :

﴿لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً.. (٣٣)﴾

[لقمان]

وأقول : لا يوجد تناقض ؛ لأننا نصلى على الميت صلاة شرَّعها المُشرِّع ؛ وفائدتها أنْ تصل الرحمة للميت المؤمن ؛ والإيمان من عمله .

ولذلك يضيف له الحقُّ سبحانه فوق رصيد الإيمان ما يشاؤه هو سبحانه من الرحمة بصلاة الجنازة التى أقامها المسلمون عليه :

(١) بحبوحة كل شىء : وسطه وخياره . وقال الفراء : البحبحىُّ الواسع فى النفقة ، الواسع فى المنزل . وتبحبح فى المجد اى انه فى مجد واسع . [لسان العرب ـ مادة : بحح] .

(٢) الزَّميت والزِّمِّيت : الحليم الساكن القليل الكلام . [لسان العرب ـ مادة : زمت] .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) ﴾ [الرعد]

وكلمة « زوج » تعنى المرأة التى يتزوجها الرجل ؛ وتعنى الرجل الذى تتزوجه المرأة ، ونحن نخطىء خطأ شائعاً حين نقول « زوجة » ؛ بل الصحيح أن نقول « زوج » عن المرأة المنسوبة لرجل بعلاقة الزواج(١) .

وسبحانه يقول :

﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا نعلم أن جنات عَدْنٍ هى مكان ينتظم كل شىء ؛ ولهذا المكان أبواب متعددة ؛ هى أبواب الطاعات التى أدَّتْ إلى خير الجَزَاءات ؛ فباب الصلاة يدخله أُناس ؛ وباب الزكاة يدخله أُناس ؛ وباب الصبر يدخله أُناس ؛ وهكذا تتعدد الأبواب ؛ وهى إمَّا أبواب الطاعات أو أبواب الجزاءات التى تدخل منها الطيبات :

﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

فالبابُ يكون مفتوحاً ؛ تأتى منه الفاكهة والثَّمَرات والخيرات على اختلاف ألوانها ؛ فمرَّةً تأتى ثمار المانجو من باب ؛ وبعد ذلك تأتى ثمار التفاح .

---

(١) كلمة « زوج » للذكر والأنثى هى لغة الحجازيين . أما « زوجة » فهى لغة بنى تميم ، فيقولون : هى زوجته . وأبَى الأصمعى فقال : زوج لا غير . واحتج بقول الله تعالى : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ (٣٥) ﴾ [البقرة] فقيل له : نعم ، كذلك قال الله ، فهل قال الله : لا يُقال زوجة ؟ وكانت من الأصمعى فى هذا شدة وعُسْر . [لسان العرب ـ مادة : زوج] .

وتلك الأبواب كما قلت هى إمّا للجزاءات ؛ أو هى أبواب الطاعات التى أدّت إلى الجزاءات ، وتدخل عليهم الملائكة من كُلّ باب ؛ فماذا تقول الملائكة ؟

يقول الملائكة لأهل الجنة :

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى(١) ٱلدَّارِ ٢٤﴾

والسلام يعنى الاطمئنان والرضا الذى لا تأتى بعده الأغيار ؛ لأن السلام فى الدنيا قد تُعكّر أمْنه أغيارُ الحياة ؛ فأنتم أيها المؤمنون الذين دخلتم الجنة بريئون من الأغيار .

وقال ﷺ عن لحظات ما بعد الحساب :

« الجنة أبداً ، أو النار أبداً »(٢) .

ولذلك يقول سبحانه عن خيرات الجنة :

﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ٣٣﴾ [الواقعة]

والملائكة كما نعلم نوعان :

الملائكة المهيمون الذين يشغلهم ذكر الله تعالى عن أىّ شىء ولا يدرون بنَا ؛ ولا يعلمون قصة الخلْق ؛ وليس لهم شأنٌ بكُلّ ما يجرى ؛ فليس فى بالهم إلا الله وهم الملائكة العَالُون ؛ الذين جاء ذكرهم فى قصة السجود لآدم حين سأل الحق سبحانه الشيطان :

---

(١) العاقبة والعُقْبى : آخر كل شىء وخاتمته . قال تعالى : ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ٤٤﴾ [الكهف] . [القاموس القويم ٢/٢٨] .

(٢) أخرج الطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم (١/٨٣) وصححه عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فلما قدم عليهم قال : « أيها الناس إن رسول الله ﷺ إليكم يخبركم أن المرد إلى الله وإلى جنة أو نار ، خلود بلا موت ، وإقامة بلا ظعن ، فى أجساد لا تموت » .

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص]

أى : أن العالين هنا هم مَنْ لم يشملهم أَمْرُ السجود ، وليس لهم علاقة بالخلق ، وكُلُّ مهمتهم ذكر الله فقط .

أما النوع الثانى فهم الملائكة المُدبِّرات أمراً ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد استدعى آدم إلى الوجود هو وذريته ، وأعدَّ له كل شىء فى الوجود قبل أن يجىء ؛ الأرض مخلوقة والسماء مرفوعة ؛ والجبال الرَّواسى بما فيها من قُوتٍ ؛ والشمس والقمر والنجوم والمياه والسحاب .

والملائكة المُدبِّرات هم مَنْ لهم علاقة بالإنسان الخليفة ، وهم مَنْ قال لهم[1] الحق سبحانه :

﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ .. (٣٤) ﴾ [البقرة]

وهم الذين يتولَّوْن أمر الإنسان تنفيذاً لأوامر الحق سبحانه لهم ، ومنهم الحفظة الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾

[الرعد]

أى : أن الأمر صادر من الله سبحانه ، وهم بَعْد أنْ يفرغوا من

---

(١) ذهب ابن كثير فى تفسيره (١/ ٧٥) إلى أن الملائكة المأمورين بالسجود هنا هم هؤلاء الذين أرسلهم مع إبليس لمحاربة من أفسد فى الأرض وسفك الدماء قبل خلق آدم ، فالحقوهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، فاغتر إبليس فى نفسه ، فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه . واستدل ابن كثير بحديث طويل لابن عباس أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره .

مـهمـتـهم كـحفظة من رقـيب وعـتـيد على كل إنسـان ، ولن يوجـد مـا يكتبـونه من بعـد الحسـاب وتقـرير الجـزاء ؛ هنا سيـدخل هؤلاء الملائكة على أهل الجـنة ليجملوا ألطاف الله والهـدايا ؛ فهم مَنُوط بهم الإنسان الخليفة .

وسبحانه حـين يُورِد كلمة فى القرآن بموقعهـا البيانى الإعرابى ؛ فهى تُؤدِّى المعـنى الذى أراده سبحانه . والمَثَل هـو كلمة «سلام » ؛ فضيف إبراهيم من الملائكة :

﴿ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ ..(٦٩) ﴾ [هـود]

وكان القـياس يقتـضى أن يقول هو « سلامـاً » ، ولكنها قضـية إيمانية ، لذلك قال :

﴿ سَلامٌ ..(٦٩) ﴾ [هـود]

فـالسلام هنا لم يَأْتِ منصـوباً ؛ بل جـاء مرفـوعاً ؛ لأن الســلام للملائكة أمرٌ ثـابت لهم ؛ وبذلك حَيَّاهم إبراهيم بتحـية هى أحسن من التحية التى حَيُّوه بها .

فنحن نُسلِّم سـلاماً ؛ وهو يعنى أن نتـمنى حدوث الفـعل ، ولكن إبراهيم عليه السلام فَطِنَ إلى أن السلام أمرٌ ثابت لهم .

وهكذا الحال هنا حين تدخل الملائكة على العباد المكرمين بدخول الجنة ، فَهُمْ يقولون :

﴿ سَلامٌ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وهى مرفوعـة إعرابياً ؛ لأن السلام أمر ثابت مُسـتقِر فى الجنة ،

وهم قالوا ذلك ؛ لأنهم يعلمون أن السلام أمر ثابت هناك ؛ لا يتغير بتغيُّر الأغيار ؛ كما فى أمر الدنيا .

والسلام فى الجنة لهؤلاء بسبب صبرهم ، كما قال الحق سبحانه على ألسنة الملائكة :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وجاء الصبر فى صيغة الماضى ، وهى صيغة صادقة ؛ فهم قد صبروا فى الدنيا ؛ وانتهى زمن الصبر بانتهاء التكليف .

وهم هنا فى دار جزاء ؛ ولذلك يأتى التعبير بالماضى فى موقعه ؛ لأنهم قد صبروا فى دار التكليف على مشقَّات التكليف ؛ صبروا على الإيذاء ؛ وعلى الأقدار التى أجراها الحقُّ سبحانه عليهم .

وهكذا يكون قول الحق سبحانه :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

في موقعه تماماً .

وكذلك قوله الحق عمَّنْ توفَّرت فيهم التسع صفات ، وهم في الدنيا :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ..(٢٢) ﴾ [الرعد]

وجاء بالصبر هنا فى الزمن الماضى ؛ رغم أنهم ما زالوا فى دار التكليف ؛ والذى جعل هذا المعنى مُتَّسعاً هو مَجِيء كل ما أمر به الله بصيغة المضارع ؛ مثل قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ..(٢٠) ﴾ [الرعد]

وهذه مسألة تحتاج إلى تجديد دائم ؛ وقوله :

﴿ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾ [الرعد]

وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ..(٢١) ﴾ [الرعد]

و ﴿ وَيَخْشَوْنَ ﴾ ، ﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ [الرعد]

هكذا نرى كل تلك الأفعال تأتى فى صيغة المضارع ، ثم تختلف الصيغة إلى الماضى فى قوله :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

والمتأمل لكل ذلك يعلم أن كل تلك الأمور تقتضى الصبر ؛ وكأن الصبر يسبق كل هذه الأشياء ، وهو القاسم المشترك فى كل عهد من العهود السابقة .

وقد عبَّر الحق سبحانه ـ لأجل هذه اللفْتة ـ بالماضى حين جاء حديث الملائكة لهم وهم فى الجنة .

وهكذا تقع كلمة الصبر فى موقعها ؛ لأن الملائكة تخاطبهم بهذا القول وهم فى دار البقاء ؛ ولأن المتكلم هو الله ؛ فهو يُوضِّح لنا جمال ما يعيش فيه هؤلاء المؤمنون فى الدار الآخرة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد]

وعلمنا أن « عُقْبى » تعنى الأمر الذى يجىء فى العَقِب ، وحين يعرض سبحانه للقضية الإيمانية وصفات المؤمنين المعايشين للقيم الإيمانية ؛ فذلك بهدف أن تستشرفَ النفس أن تكون منهم ، ولا بُدّ أن تنفرَ النفس من الجانب المقابل لهم .

والمَثَل هو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) ﴾ [الانفطار]

ويأتى بمقابلها بعدها :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وساعة تقارن بأنهم لو لم يكونوا أبراراً ؛ لكانوا فى جحيم ؛ هنا نعرف قَدْر نعمة توجيه الحق لهم ، ليكونوا من أهل الإيمان .

وهكذا نجد أنفسنا أمام أمرين : سلب مَضرَّة ؛ وجلْب منفعة ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن النار :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا[1] كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً (٧١) ﴾ [مريم]

أى : كلنا سنرى النار .

ويقول سبحانه :

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر]

وذلك لكى يعرف كل مسلم ماذا صنعتْ به نعمة الإيمان ؛ قبل أن

---

(١) ورد يرد : حضر أو أشرف على المكان دخله أو لم يدخله . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠] .
قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : « ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها ، وورود المشركين أن يدخلوها » [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/ ١٣٣] .